سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ ﴾

سَبَّحَ للهِ: نزهه ومجده تعالى ودل عليه.

كَبُرَ مَقْتاً: عظم بغضا بالغ الغاية.

صَفاً: صافين أنفسهم أو مصفوفين.

بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ: متلاصق محكم لا فرجة فيه.

الكون كله - ماعدا الإنسان - يخلو من التناقص في كل ناحية من نواحيه ، فالخشب في هذا العالم يبقى خشباً أينما وُجد، وما نراه في صورة الحديد أوْ الحجر مثلاً، نجده على محك التجربة العملية حديداً أو حجراً كذلك . والمطلوب من الإنسان أيضاً أن يكون كذلك ، فينبغي أن يكون ظاهره وفقاً لباطنه، وأن يكون فعله مطابقاً لقوله، حتى لو اضطر إلى دفع ثمن قوله بالصبر والصمود كالجبل الشامخ في وجه العقبات والشدائد على اختلاف أنواعها !!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾

زَاغُوا: مالوا باختيارهم عن الحق.

أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ: حرمهم التوفيق لاتباع الحق.

بُعث موسى عليه السلام في بني إسرائيل ، وقد كان بنو إسرائيل يوم ذاك شعباً أصيب بالفساد والانحطاط، بحيث لم يعد في نفوسهم من الشجاعة الإيمانية ما يجعلهم يفعلون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون ، ففيما كانوا يدّعون الإيمان بموسى عليه السلام من جهةٍ، لم يكونوا يتحرجون من نقض العهود والمواثيق ولا يتورعون عن إتيان المعاصي والمنكرات من جهةٍ أخرى ، حتى إنهم كانوا يواجهون ضروب الاتهامات الكاذبة إلى موسى تبريراً لسلوكهم الشائق معه عليه السلام (ولمزيد من التفصيل في هذا الشأن يراجع سفر الخروج وسفر العدد من العهد القديم). وكلما خالف الإنسان العهد أوْ نقضه بعد إبرامه، اتسعت الفجوة بينه وبين الحق أكثر من ذي قبل !

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

نُورَ اللهِ: الحق الذي جاء به الرسول ﷺ .

وَأُخْرَى: ولكم من النعم نعم أخرى.

لقد كانت معجزات سيدنا المسيح عليه السلام تتضمن دليلاً قاطعاً على أنه نبي مرسل

من عند الله ، ولكن اليهود قابلوه بالإعراض والتكذيب باعتبار معجزاته سحراً وشعوذةً ، وهكذا كانت الكتب السماوية السابقة تحتوي على نبوءةٍ واضحةٍ بمجيء نبي آخر الزمان ﷺ ولكنه لما جاء قوبل بأشنع الرفض والإنكار من جانب اليهود والنصارى على حدٍ سواء .

إن الإنسان ظالم لدرجة أنه يأبى الاعتراف حتى بالحقائق الجلية الصارخة التي لا سبيل إلى إنكارها !! والمقصود من الغلبة في الآية ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ هي الغلبة الفكرية ، يعني تمكين عقيدة التوحيد من البقاء وحدها كفكرة غالبةٍ في أنحاء العالم كافة، وجعل ما سواها من المعتقدات غير التوحيدية عن قضايا الألوهية والدين والعبادة، مغلوباً على أمره من الناحية الفكرية إلى الأبد ، ولقد نزلت هذه النبوءة القرآنية سنة ٣ هجرية في ظروف غير مواتية للغاية، إلا أنها تحققت حرفاً حرفاً فيما تلاها من الأعوام والقرون !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

في عالم التجارة يقوم الإنسان بالبذل والعطاء أولاً، ليظفر بما يعود عليه من الربح أخيراً ، وكفاح الدين هو الآخر نوع من التجارة، من حيث إن المرء يُضطر في سبيله كذلك إلى بذل الكثير من وقته ونفسه وماله، بيْد أن ربح التجارة الدنيوية محدود وهو يقتصر على الحياة الراهنة وحدها، وأما تجارة الدين فأرباحها لا تُحد وهي تشمل كلتا

الحياتين الدنيا والآخرة ، كما أن هذه " التجارة " تفتح باب الغلبة والتمكين، الذي هو الوسيلة الكبرى بالنسبة إلى طائفةٍ ذات مبدأ ورسالة للحصول على حياةٍ كريمةٍ تحت ظلالٍ وارفة من الأمن والاستقرار على هذه الأرض!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾

لِلْحَوَارِيِّينَ: أصفياء عيسى وخواصه.

فَأَيَّدْنَا: قوينا المحقين بالإيمان.

ظَاهِرِينَ: غالبين بالحجج والبينات.

إن سيدنا المسيح عليه السلام وإن كان قد قوبل بالرفض والإنكار من جانب الأغلبية العظمى من بني إسرائيل، إلا أن بعضاً منهم وقفوا إلى جانبه عليه السلام وناصروه ما دام بين أظهرهم بكامل الإخلاص والوفاء، ثم قاموا بعد رفعه، بنشر تعاليمه ودفع مسيرته إلى الأمام بهمةٍ ونشاطٍ ، وهم الذين عرفوا بالحواريّين ، وهذه الفئة القليلة العدد هي وحدها قد اُعتبرت عند الله في عداد المؤمنين، بينما اُعتبر سائر اليهود، رغم إيمانهم بالأنبياء السابقين على المسيح، كافرين !

والغلبة المشار إليها في هذه الآية هي غلبة المؤمنين برسالة المسيح عامةً، على المكذبين برسالته من بني إسرائيل عامةً، كما حدث في التاريخ بالفعل ، فعلى إثر المسيح اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين الثاني (٢٧٢-٣٣٧م) الديانة النصرانية ، وقد كانت رقعة مملكته تمتد من بلاد الشام إلى فلسطين، مما جعل معظم رعاياه الرومانيين يدخلون في دين المسيح زرافات ووحداناً، حتى بات اليهود إزاءهم أقليةً مغلوبةً على أمرها ، كما

أن دولة إسرائيل اليهودية في العصر الحديث هي الأخرى ليست مستقلةً بذاتها أوْ قائمة على رجليها ، وإنما هي تابعة لكبرى الدول المسيحية من كل الوجوه والاعتبارات !!

obeikandl.com